أسس
علم اللغة العام وتطبيقاته على اللغة العربية

محاضرة ألقاها في نادي مكة الثقافي الأدبي

مساء يوم الثلاثاء ٢٤/ ٢/ ١٤٢٣هـ

الأستاذ الدكتور/ سليمان بن إبراهيم العايـد

رئيس قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية

جامعة أم القرى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هناك نقاط يحسن بنا أن ننبِّه عليها، وهي :

١ – أنّ التكوين العلميّ لا يوجب الإحاطة بجميع ما كتب في علم ما، وإلاّ انقضى العمر ولم يفعل الإنسان شيئًا، وإنما يكفي أن يحيط الإنسان بأصول العلم، ومقاصده ، ولغته ومصطلحه، مع صلته بالعلوم الأخرى. ومن هذه العلوم ما نسمّيه « علم اللغة العام » كتبه كثيرة، ومصنفاته وافرة، ومقالاته منتشرة، وأبحاثه ذائعة مشتهرة، ومتابعة الجديد منه ليست بالأمر الهيّن السهل، لكنّه – كغيره من العلوم – تتعيّن الإحاطة بأصوله، ومعرفة مقاصده. وباقي مسائله مبنيّةٌ عليها. وقد أدرك علماؤنا الأوائل ذلك ، فجعل ابن فارس لعلم العرب أصلًا وفرعًا، وجعل عدم الإحاطة بالفرع سائغا مقبولا ، وجعل عدم العلم بالأصل مما يعيب صاحبه أدبًا ، يتجلى ذلك في قوله: « والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن متوسِّمًا بالأدب لو سئل عن الجزم والتّسويد في علاج النوق ، فتوقّف أو عيّ به أو لم يعرفه، لم ينقصه ذلك عند أهل المعرفة نقصًا شائنا ؛ لأن كلام العرب أكثر من أن يحصى. ولو قيل له : هل تتكلم العرب في النفي بما لا تتكلم به في الإثبات ؟ ثم لم يعلمه ، لنقص ذلك في شريعة الأدب عند أهل الأدب لا أن ذلك يردي دينه ، أو يجرّه لمأثم »[1].

٢ – أنَّ كلَّ علم ابن بيئته، ويخدم غرض من أحدثه، ويتأثر بقيم واضعيه، والناقل له من غير أهله يجب أن يكون على وعي بأصوله، وجذوره التاريخية، ومقاصده، وأغراضه. وأن يقبس منه مالا يتعارض مع ما لديه من ثوابت وقيم.

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس/ الصاحبي / تحقيق السيد أحمد صقر/ طبعة عيسى البابي الحلبي/ القاهرة سنة ١٩٧٧م. ص ٤-٥

٣- أن المسلمين أمَّةٌ من دون الناس، ولهم دين غير الأديان، ولغة اكتسبت قوتها وشرفها من هذا الدين ، إنّ من المسلّمات أن لكلّ قوم خصائصهم ، ولكلّ دين خصائصه، ولكلّ لغة خصائصها، ومزاياها، ومقوِّماتها، وغاياتها، وكل قوم مسئولون عما يحفظ كيانهم وقوتهم، والاستمساك بما يعود عليهم بالقوة، ونبذ كل عوامل الفرقة والتمزّق، كما أن لكل دين حملته ودعاته، يبشرون به وينشرونه، ويقيمونه ويدعون إليه، يدفعون عنه شبه المشكّكين، وأقاويل المرجفين، ودعاوى المغرضين، وفرى المفترين، ولكلّ لغة أهْلٌ ينشرونها، ويعلِّمونها، ويؤسّسون علومها، ويضبطون قواعدها، ويقيِّدون أحكامها. ويحيطون بشواذِّها ونوادرها، ويأتون على غريبها وشاذِّها، ويرتبون مسائلها وقضاياها، وأُصُولها وفروعها، بحسب ما تمليه طبيعتها، وما يناسبها ويلائمها: لأنهم مسئولون عن لغتهم لاعن لغة غيرهم، ولأنّ لكلّ لغة من الخصائص ما يوجب دراستها استجابةً لمتطلباتها، وحاجات أهلها، وراغبيها. فإذا قام أصحاب اللغة بواجبهم تجاه لغتهم، تدوينًا، ودرسًا، وتعليمًا، ونشرًا ، كان لهم أو جاز أن ينظروا في غيرها ، أمّا أن يضربوا بما يمليه الواجب اللغوي عليهم جانبًا، ويعرضوا عنه صفحًا، فهذا من تجاوز ما ينبغي، وخلاف ما يوجبه الأخذ بالأولويّات. وهو اشتغالٌ بما لا ينقصنا عمّا ينقصنا، وبما لا نحتاجه عمّا نحتاجه.

ولعلّ مما يدخل في هذا الشّأن ما نسمّيه « علم اللغة العام » ، وهو علم حديث النشأة، قريب التكوين، لم تستو سوقه بعد، وما زال أصحابه يختلفون في أصوله ومقوّماته، وأسسه وحقائقه، وأهدافه وغاياته. وفروعه ومسائله، وإن كان المبشرون به في عالمنا العربي يذهبون غير هذا المذهب، ويعتقدون مالا يعتقده أصحابه ومنشئوه، ولا غرو في ذلك ولا عجب، إذ هم لا يحسنون من علوم العربية غير ما توهموه في هذا الوافد، وقد عُزِلُوا به توجيهًا أو إعجابًا أو جهلًا عن علوم العربية

الأصيلة، نحوًا وصرفًا ولغةً، وبلاغةً، وأدبًا، ومن يملك شيئًا يحرص عليه، ومن لا يملكه لا يهمّه ولا ينظر إليه، فالذي يعلم العلوم الأصيلة، وعلم السلف يستمسك بها ويحرص عليها إيمانًا بجدواها وقيمتها ، والذي لا يعلمها لا نتوقع منه الحرص عليها، لأنّه لم يعرف قيمتها، ولم يتذوق معانيها ومبانيها، فلا غرو عليهم أن يتعصبوا لهذا الوافد، وأن يدعوا إليه. ويبشروا بفتوحاته العلمية.

يحدّثنا عبد الرحمن أيّوب عن نشأة هذا العلم عند أهله، فيقول: « اتّسم التفكير اللغويّ في العصر الحديث بموضوعية البحث، واقتنع اللُّغويُّون بأن يكونوا وصّافين للظّواهر اللغويّة لا مفلسفين لها.

وقد يبدو هذا لمن لا يعرفون الكثير عن تاريخ الدراسات اللغويّة نكسة للخلف لا خطوة إلى الأمام، ولكنّ ذلك الاقتناع المتواضع من علماء اللغة اليوم، لم يكن سوى ردّ فعلٍ لطغيان منطق أرسطو على التفكير اللّغويّ في العصور القديمة، والعصور الوسطى، وفي صدر عصر النهضة، وقد كان من نتيجة هذا أن تجاهل اللُّغويُّون في هذه العصور الخصائص المميّزة لكلّ لغة، وفرضوا عليها ما ليس فيها، كان كل همّ مؤلِّفي قواعد اللغة أن يفرضوا عليها النّحو اللاتيني الذي كان يعتبر نموذجًا ومثالًا لأيّة محاولة تهدف إلى تأليف نحوٍ للغةٍ من اللغات.

أصبح من المفروض أن تقسم مفردات كلّ لغة إلى أسماء وأفعال وحروف، وأن تقسم الأسماء إلى معارف ونكرات، ومذكر ومؤنث. وغير ذلك.

وظلّ الحال على هذا حتّى جاء عصر الاستعمار الأوربّي لبلاد آسيا وأفريقيا، فواجه الغربيّون ضرورة التّعرّف على لغات الشعوب التي يستعمرونها، وحاول بعض المؤلّفين أن يضعوا لهذه اللُّغات الجديدة نحوًا على نسق النّحو اللاّتيني، ولكن مثل هذه المحاولات لم تفلح في أداء الغرض منها، وعاود البحث في هذه اللغات عددٌ آخر من اللُّغويّين، وتكشّف لهم ما في تطبيق النّحو اللاّتيني وفروضه وتقسيماته على

هذه اللُّغات الجديدة من عيوب. وهنا تسرّب الشّكّ إلى التفكير اللُّغويّ التقليديّ، وأصبح على الباحث اللُّغوي أن يخطّ لنفسه منهجًا جديدًا لا يعتمد على تراثٍ أخذه عن فلسفة الإغريق أو قواعد اللّغة اللاّتينية.

وأثَّرت الأبحاث المادّية التحليلية على الأبحاث اللغويّة، فأصبحت دراسة الأصوات الخطوة الأولى إلى الدراسة اللغويّة بمختلف فروعها، وازدهرت اليوم مدرسةٌ تسمّى بالمدرسة التحليليّة الشكلية (School of Formal Analysis) وتنوّعت نظرياتها، وأصبحت الدراسة اللغوية في بعض صورها أشبه بالمعادلات الرياضية »[1] .

وقد ذكر نحوًا من هذا ماريوباي في كلام طويل ملخصة أن « هذا الاتجاه الوصفي تم على يد بعض المبشّرين، بوضع قوانين للغات تلك الشعوب التي اتصلوا بها، وحاولوا تطبيقه على بعض جوانب تمسّ الحياة الدينية، غير أنهم لم يستطيعوا مغالبة الاتجاه الداعي إلى صب اللغات كلها في قوالب عالمية على نمط اللغتين اللاتينية واليونانية »[2] [3] .

وباتساع الحركة الاستعمارية واطلاع المستعمر على لغات مختلفة غير ما كان يعرف، لا تصلح لها معايير النحو اللاتيني ظهرت محاولات وضع النحو الوصفي، الذي شكّك في القيم اللغوية الثابتة، مثل مستوى الصواب اللغوي، وانقسام اللغة إلى لهجات، ومشكلة اللهجات الطبقية.

---

(١) عبد الرحمن محمد أيوب / دراسات نقدية في النحو العربي / مكتبة الأنجلو مصرية / عام ١٩٥٧م القاهرة / المقدمة ص هـ... وانظر ماريوباي / أسس علم اللغة / ترجمة أحمد مختار عمر/ نشر جامعة طرابلس / ليبيا / عام ١٩٧٢م ص ١٢٠ وص ٢٣٠ فما بعدها .

(٢) انظر ماريوباي / أسس علم اللغة ص١٢٠

وقد ربط ماريوباي هذا الاتجاه بعقل عصر النهضة الفاحص الذي ينزع إلى التجريب، ويتمرد على الغيبية المطلقة، ويأبى خلع الأزلية على الأشياء المؤثرة في الحياة، ويجعل ما يقع في العالم إنما هو محض صدفة[١] .

وقد سبق ظهور علم اللغة العام الوصفي ظهور علم اللغة المقارن، وصاحب ذلك بدايات لعلم اللغة الوصفي، وصاحبه تطورات أو مقدمات لظهور هذا العلم. خاصة في جانب الدراسة اللهجية، التي قادت إلى دراسة ما يسمونه اللغات الحديثة ولهجاتها المتشعبة، ونتج عن هذا اهتمام بدراسة الجوانب المختلفة لهذه اللغات الحديثة عن طريق الملاحظة المباشرة التي تعدّ السبب في ظهور علم اللغة الوصفي الذي يعني باللغات المتكلمة، ويقلّل من اللغة المكتوبة[٢] .

نحن نتحدث عن علمٍ وافدٍ جديد خفيت رسومه على بعض أهل العلم، والتبست معالمه بغيره، حتى جعله بعضهم وفقه اللغة شيئًا واحدًا، من باب الترادف،وبعضهم رفض تسميته « علم اللغة » واستمسك بالتسمية القديمة « فقه اللغة » .

والباحثون الآن يفرقون بين العلمين، أو بين الاسمين، نظرًا لاختلافهما في الموضوع، والمقاصد، كما سنبيّن، إن شاء الله .

* * *

لا يتعين علينا أن نستقصي جميع كتب علم اللغة في تعريفه، لأنها كتبٌ ينقل بعضها عن بعضٍ بإشارةٍ أحيانًا، وبإهمال الإشارات أحيانًا أخرى، ولا يلزمنا الإحاطة بها أو الإشارة إليها كلها، أو الرجوع إليها جميعًا، وإنما يكفي منها أصولها،

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٣٠ – ٢٣٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢-٢٣٤ وانظر ص ٢٣٥- ٢٣٧

أمّا الكتب الناقلة فلا غناء فيها، وعنها غناء .

وقد كثرت كتب علم اللغة، وهي كتبٌ دراسية (مدرسية) في الغالب، ألّفها أصحابها لتكون مقرراتٍ جامعية، وحاولوا فيها تبسيط هذا العلم، وتقديمه للقارئ العربي بصورة مستساغة ، غير أنها لا تخرج عن كونها ترجمة عن أصول أوروبيّة، وقد يخلطونها أحيانًا بأمثلة من العربية أو عاميتها، وأحيانًا يستمسكون بالأمثلة الأوروبيّة كما هو الحال في المصطلحات غالبًا .

ونحن نجد في الكتب العربية تعريفًا مثل تعريف فؤاد ترزي: « المقصود بعلم اللغة هو دراسة اللُّغة بصورة عامَّةٍ، واستخلاص قواعد تتعلّق بأصولها وتراكيبها، ودلالة ألفاظها مفردةً ومركبة، على أن تكون هذه الدراسة دراسةً تحليليّة مبنيّة على حاضر اللغة وواقعها »[١] .

ومثل تعريف د. رمضان عبد التواب : « علم اللغة هو العلم الذي يبحث في اللغة، ويتخذها موضوعًا له، فيدرسها من النواحي : الوصفيّة، والتاريخيّة، والمقارنة، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللُّغات المختلفة، أو بين مجموعةٍ من هذه اللغات، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعدّدة، وعلاقتها بالنظم الاجتماعية »[٢] .

ويحظى رأي سوسير بشأن تحديد علم اللغة بقبولٍ لدى اللُّغويّين المحدثين، ولذلك نؤثر جعله أساسًا ومنطلقًا لحديثنا، ومن هؤلاء ماريوباي الذي أشاد بتحديد دي سوسير لعلم اللغة الوصفي، ووسمه بالوضوح والدقة الفاصلة بين فرعي علم

---

(١) فؤاد ترزي / دراسات لغويّة / عام ١٩٦٥م ص ١٣

(٢) رمضان عبد التواب / المدخل إلى علم اللغة ، ومناهج البحث اللغوي/ ط الثانية عام ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م/ مكتبة الخانجي / القاهرة ص٧ ترجمة لكلام دي سوسير في كتابه (Grand Fragens) .

اللغة »[١] .

وقد انحصرت مهمة التراجم في شرح هذا التعريف، والإشادة به، يقول السعران: « اللغة التي يدرسها علم اللغة ليست الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية، ليست لغةً معيّنةً من اللُّغات، إنما هي اللغة التي تظهر وتتحقق في أشكال لغاتٍ كثيرةٍ، ولهجاتٍ متعدِّدة،وصورٍ مختلفة من صور الكلام الإنسانيّ، فمع أنّ اللغةَ العربيّة تختلف عن الإنجليزية، وهذه الأخيرة تفترق عن الفرنسيّةِ إلاّ أنَّ ثمّةَ أصولًا وخصائص جوهريّة، تجمع ما بين هذه اللغات، وتجمع ما بينها وما بين سائر اللُّغات، وصور الكلام الإنسانيّ، وهو أنّ كلًا منها لغةٌ، وأنّ كلًا منها نظام اجتماعيّ معيَّنٌ تتكلَّمهُ جماعةٌ معيَّنَةٌ بعد أن تتلقَّاه عن المجتمع، وتحقَّق به وظائف خاصّةً، ويتلقَّاه الجيلُ الجديدُ عن الجيل السّابق، ويمرُّ هذا النظام بأطوارٍ معيَّنَةٍ متأثِّرًا بسائر النظم الاجتماعية والسياسيّة والاقتصادية والدينيّة، وبسوى ذلك ... الخ .

وهكذا فعلم اللّغةِ يَسْتقي مادَّتَه من النظر في « اللُّغات » على اختلافها، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص التي تسلُكُ اللُّغاتِ جميعًا في عقدٍ واحد ..... فموضوع علم اللغة إذن ليس لغةً معيَّنةً من اللُّغات، بل اللُّغة من حيث هي وظيفة إنسانيّة، والتي تبدو في أشكال نظم إنسانيَّةٍ اجتماعيَّة تسمَّى اللُّغاتِ كالروسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة أو اللهجات أو أيّ اسمٍ آخر من الأسماء ، هذه الصورةُ المتنوِّعة المتعدِّدةُ واحدةٌ في جوهرها، وتمثّل وظيفة إنسانيّة »[٢] . ثم يقول أيضًا : « هذه هي اللُّغة التي هي موضوع علم اللُّغة، أمّا معنى قول دي سوسير :إنّ علم اللغة

(١)انظر ماريوباي / أسس علم اللغة ص٢٣٥

(٢) محمود السعران/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي / دار النهضة العربية / بيروت/ بدون تاريخ ص ٤٩ – ٥١

[يـــدرس اللغة] « في ذاتـها » فهو أنّه يدرسُها من حيثُ هِيَ لغةٌ، يدرسها كما هي ، يدرسها كما تظهر ، فليس للباحث فيها أن يغيِّر من طبيعتها ، فليس لـه أن يقتـصر في بحثـه عـلى جوانب من اللغة مستحسنًا إيّاها ، وينحّي جوانب أخرى استهجانًا لها ، واسـتخفافًا بـها ، أو لغرضٍ في نفسه ، أو لأَيِّ سببٍ آخر من الأسباب .

وأمّا أنّ علم اللغة يدرس اللغة « من أجْل ذاتـها » فمعناه أنّـه يدرسـها لغـرض الدراسة نفسها ، يدرسها دراسةً موضوعيّة تستهدف الكشف عن حقيقتهـا ، فلـيس من موضوع دراسته أن يحقّق أغراضًا تربويّةً مثلًا ، أو أيَّةَ أغراضٍ عمليّةٍ أخرى ، إنّـه لا يدرسها هادفًا إلى ترقيتها ،أو إلى تصحيح جانب منها ، أو تعديل آخـر . إنّ عملـه قاصرٌ على أن يصفها ويحلّلها بطريقة موضوعيَّة »[١] .

هذا يعدّ من أوضح التفاسير العربية لكلام سوسير ، وعامّة التفاسـير لا تخـرج عنه ، ولا تكاد تزيد شيئًا ذا بال .

وأجمل رمضان ترجمة ما قاله سوسير عن موضوع اللغة بقوله : « وموضوع علم اللُّغةِ هو كُلُّ النشاط اللُّغويِّ للإنسان في الماضي والحاضر ، يستوي في هـذا الإنـسانُ البدائيّ والمتحضّر ، واللغات الحيّة والميّتة ، والقديمة ، والحديثة ، دون اعتبارٍ لـصحّةٍ أو لحنٍ ، أو جودةٍ أو رداءةٍ ، أو غير ذلك »[٢] .

وفي حديث لـ دي سوسير عن مهمّة الألسني ما يزيد الموضوع جلاءً ؛ إذ جعـل مهمَّة الأَلْسنيِّ تتمثل في الآتي :

---

(١) المصدر السابق ص٥١

(٢) رمضان عبد التواب / المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ص٧

١ - أن يقوم بالوصف والتاريخ لكلّ ما يمكنه أن يقف عليه من اللغات ، وهو ما يئولُ به إلى أن يقوم بوضع تاريخ الفصائل اللّغويَّة، وأن يعيد بقدر المستطاع بناءَ اللّغاتِ الأُمِّ من كل فصيلةٍ .

٢ - أن يبحث عن القوى العاملة عملًا دائمًا مستمرًّا في جميع لغات العالم ، وأن يستخلص القوانين العامّة التي إليها يمكن رجع جميع الظواهر الخاصّة بتاريخ اللّغات .

٣- أن يحدّد موضوعها ويعرف ماهيّتها من خلال علاقة الألسنية بالعلوم الأخرى ، وهذه العلاقة تؤَدِّي – إن شاء الله – إلى تمايز العلوم ، ومعرفة حدودها ، ومدى ما يمكن لكلّ علم أن يفيده من العلوم الأخرى[١] .

« ولا ترمي دراسة علم اللّغة إلى أغراضٍ عمليّة ، فإن الباحث اللُّغويُّ يدرس اللغة لغرض الدراسة نفسها ، فهو يدرسها دراسةً موضوعيّة ، تستهدف الكشف عن حقيقتها ، فليس من موضوع دراسته أن يحقّق أغراضًا تربويَّةً مثلًا ، أو أيَّةَ أغراضٍ عمليّة أخرى ، فهو لا يدرسها بغرض الارتقاءِ بها مثلًا ، أو تصحيح جوانب منها ، أو القضاء على عوج فيها، فإنَّ عمله يجب أن يقتصر على وصفها وتحليلها ، بطريقة موضوعيّة »[٢] .

« وظيفة علم اللغة الوصفي أساسًا وضع الأسس والمعايير التي تقبل التطبيق على مادة اللغة كلها ، وكذلك وصف اللغاتِ كلٍّ على حدة بدقَّةٍ .

ومن الممكن أن نستخلص من هذه الدراسات الوصفية أسسًا مفيدة ، ومناهج

---

(١) انظر فرديناند ديسوسير / دروس في الألسنية العامة / تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة / الدار العربية للكتاب / بيروت / عام ١٩٨٥م ص٢٤-٢٥

(٢) رمضان عبد التواب / المدخل إلى علم اللغة ص ٩

تساعد في تعليم اللغة وتعلّمها إذا أريد توجيه الأعمال الوصفية للنفع بدقة وذكاء ، ولكن مهمّة عالم اللغة تنتهي بمجرّد أن يقدّم لنا بكلِّ دقّةٍ أعماله الوصفيّة ، وفيما وراء ذلك . فإمّا أن يحوِّلَ عالم اللغة الوصفيُّ نفسه إلى معلِّم لغة (وهو غالبًا غير مؤهَّلٍ لذلك)، أو أن يترك الميدان لمعلّم اللغة المؤهّل »[١] .

وهذا الكلام يشعرك بمدى الحرج الذي يعانيه صاحبُ علم اللغة العام حين يحاول فصل عمله عن أي غرض نفعي تربويٍّ وتقويميٍّ تصحيحيٍّ. وهذا خلاف ما يؤكده لنا التراجم العرب الذين حاولوا نقل هذا العلم ، وكتبوا فيه كتاباتٍ ليست بالقليلة .

« من واجبات اللّغويّ أن يدرس اللُّغةَ كما هي ، فليس له أنْ يغيِّر من طبيعتها ، شأنه في ذلك شأن الباحث في أيّ علمٍ من العلوم ، فليس له أن يقتصر في بحثه على جوانب من اللغة مستحسنًا إيَّاها ، وينحي جوانب أخرى ، استهجانًا لها ، أو استخفافًا بها ، أو لغرضٍ في نفسه ، أو لأيِّ سببٍ آخر من الأسباب »[٢] .

وعلم اللغة الحديث العام الوصفي يعنى باللغة المنطوقة أكثر من عنايته باللغة المكتوبة ، يقول جون ليونز : « وقد تعوّد علماء النحو التقليديّون على الاهتمام باللغة المكتوبة ، وتجاهل الفرق بين الكلام والكتابة ، وإن لم يهملوا اللغة المنطوقة بالكلية ، وينظرون إليها على أنها صورة غير كاملة من اللغة المكتوبة ، في حين أن معظم علماء اللغة الآن يرون لغة الكلام أولًا ، واللغة المكتوبة ثانيًا »[٣] .

---

(١) ماريوباي / أسس علم اللغة ص١٥٤

(٢)رمضان عبد التواب / المدخل إلى علم اللغة ص٩

(٣)جون ليونز / نظرية تشومسكي اللغوية / ترجمة وتعليق حلمي خليل / ط أولى عام ١٩٨٥م / دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ص ٤١

« إن الاهتمام الأوّل لعالم اللغة الوصفيّ ينصبُّ على الأصوات وعلى الصِّيَغ النّحويّة للُّغة المتكلَّمة ، ولذا فإنّ منهج بحثه يتجنّب عادةً الاعتماد على المادّة المكتوبة من ناحية ، واقتفاء أثر القواعد النحويّة التقليدية القديمة من ناحيةٍ أخرى ، وذلك ؛ لأنّ الدراسة الأخيرة قد أسستْ جزئيًّا على لغاتٍ قديمةٍ بطل استعمالها ، كما أنّ أصحاب هذه الدراسة يأخذون الصورة المكتوبة للغة على أنّها أساس البحث ويردُّون إليها كلّ ظواهر اللغة المتكلَّمة . ويندر أن تجد أيًّا منهم في تناوله للجزئيّات يؤسّس نتائجه على الملاحظة العلمية أو الاستقراء »[١] .

ويزيد جون ليونز هذه الفكرة وضوحًا بقوله: « إن علم اللغة الحديث يرى أنه ألصق بالعلمية، وأكثر شمولًا من القواعد النحوية التقليدية ، كما يرى أن المادة الطبيعية للتعبير باللغة هي الصوت الذي تحدثه أعضاء النطق ، وأن اللغة المكتوبة مشتقة من الكلام ، وأن القواعد النحوية لأيّ لغة تتكوّن من ثلاثة أجزاء مترابطة ، هي النحو ، والدلالة ، والفنولوجيا ، وهذه الأجزاء الثلاثة مضافًا إليها أشياء أخرى هي التي تعتمد عليها قدرة أبناء اللغة في الصياغة والفهم لعدد لانهائي من الجمل الجديدة »[٢] .

« موضوع فقه اللغة لا يختصُّ بدراسة اللُّغات فقط ، ولكن يجمع إلى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد ، والنتاج الأدبيّ للغات موضوع الدراسة .

أمّا علم اللغة فيركز على اللُّغة نفسها ، ولكن مع إشاراتٍ عابرة – أحيانًا – إلى قيم ثقافيّة وتاريخيّة ، ويولي علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة ، وإن كان يوجِّهُ كذلك للغة المكتوبة شيئًا من الاهتمام .

---

(١) ماريوباي / أسس علم اللغة ص١١٩

(٢) جون ليونز / نظرية تشومسكي اللغوية ص ٥٩

إن علم اللغة هو دراسة اللغة ، والمعنى الاشتقاقيّ للُّغة هو أنَّها « تلك التي تتعلّق باللِّسان الإنساني »[١] .

وبعده كلام عن المراد باللغة ، وأنها تشمل الإشارات والحركات وغيرها ، واللغوي لا يعنى بها إلاّ بدرجة محدودة[٢] .

« قد نازع فقه اللغة (الفيلولوجيا) في اختصاصه وموضوعه في نصف القرن الأخير (التاسع عشر) دراسةٌ ناشئة مستحدثة ذات طابع عالميّ تحاول استنباط طرقٍ وقواعد لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانيّة عامّة ، تصلح لأن تكون أساسًا لدراسة جميع أشكالٍ الكلام التي تصطنعها الجماعات البشريّة على اختلافها ، ولذلك أطلقوا على دراساتهم هذه « علم اللغة العام » واللغة عندهم أصواتٌ تؤدِّي وظيفةً اجتماعيّة . وهي في عرفهم ما يتكلّمه الناس في واقع الأمر لا ما يجب أن يتكلموه »[٣] .

وهم من أجل ذلك لا يفرِّقون بين فصيح وعامّي ، فهما في عرفهم بمنزلةٍ واحدة من النقاء والصلاحية للتعبير الأدبيّ ، وتفرع من هذه الدراسة علم يعنى بالجانب الصَّوتيّ خاصَّةً، يعتمد على الأجهزة والآلات التي تحدّد الفوارق الدقيقة بين الحروف والكلمات سمّوه علم الصّوتيّات (Phonetics) ولا تزال هذه الدراسات في طور النشأة عند الغربيّين لم تنضج بعد ولم تستقرّ . ولذلك فالمدارس الغربيّة لا تزال

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥

(٢) المصدر السابق ص ٣٥

(٣) محمد محمد حسين/ فقه اللغة بين الأصالة والتغريب / مقالة في مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد(١١) عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص ١٨٠

قانعة باتباع النظم التقليديّة في تعلم اللغة عن طريق الآجروميّة (Grammar)، لا تلقي بالًا إلى ما يقوله المشتغلون بهذه الدراسات ، وما يدعون إليه من أساليب ومفاهيم جديدة ، ولا تزال اللغة الأدبيّة الفصيحة عندهم هي المخصوصة بالدراسة ،

لا يلتفتون إلى ما يدعو إليه المشتغلون بعلم اللغة العام من التسوية بينها وبين اللهجات العاميّة »[١] .

الفرق بين فقه اللغة الذي يسميه الغربيون (Philology) (فيلولوجي) ، وبين علم اللغة العام الذي يسمونه (General Linguistics) الذي يريد دعاة التغريب إقحامه على فقه اللغة العربية هو :

« أنّ فقه اللغة ينبع من طبيعة كل لغةٍ ومن واقعها ، وينحصر عمله في خدمتها دون نظر إلى غيرها . أمّا علم اللغة العام فهو يصدر عن اتجاه عالميّ يفترض أنّ هناك خصائص وقوانين صوتية واجتماعية عامة توجّه سائر اللغات في تطوّرها الدّائم الذي لا يتوقّف عند حد »[٢] .

إنّ علم اللغة العام ينبع من واقع اللغات الأوروبيّة ، وهي لغات متغيِّرة لا تثبت ، بل تتطوّر بسرعة بخلاف العربيّة التي تقف من حركة تغير اللغة موقفًا يجمع بين المرونة والثبات[٣] .

وقد التبس هذا النوع من الدراسة على فئةٍ من كتابنا أصحاب التّوجّهات السليمة مثل محمد المبارك ، وصبحي الصالح . على الرغم من تميّز ما كتبا[٤] . فلم

(١) المصدر السابق ص ١٨٠-١٨١
(٢) المصدر السابق ص ١٩٣
(٣) المصدر السابق ص ١٩٣
(٤) المصدر السابق ص ١٩٣

يفرّقا بينهما في حين يفرّق أصحاب علم اللغة بينهما .

مهمّة الألسني تتمثل في :

١ - أن يقوم بالوصف والتاريخ لكلّ ما يمكنه أن يقف عليه من اللغات ، وهو ما يئول به إلى أن يقوم بوضع تاريخ الفصائل اللغوية ، وأن يعيد بقدر المستطاع بناء اللغات الأمّ من كل فصيلة .

٢ - أن يبحث عن القوى العاملة عملًا دائمًا مستمرًا في جميع لغات العالم ، وأن يستخلص القوانين العامّة التي إليها يمكن إرجاع جميع الظواهر الخاصّة بتاريخ اللغات .

٣- أن يحدِّد موضوعها ويعرف ماهيَّتها[١] .

يقول الدكتور تمام: « أو الفائدة التي تعود من تطبيق هذا المنهج هي تخليص الدراسات اللغوية من الشوائب الأخرى ؛ ليجد الطالب نفسه أمام موضوع مستقلّ ، لا يعتمد في أفكاره ، ولا في اصطلاحاته على فروع المعرفة الأخرى »[٢] .

ويقول سوسير: « وأمّا الفيلولوجيا » فقد وصلنا بعد إلى موقف ثابتٍ بشأنها : أنها تتميّز عن الألسنية تميُّزًا جليًّا رغم نقاط الاتّصال بين العلمين والخدمات المتبادلة بينهما .

وفي نهاية المطاف يمكن أن نتساءل : ما هي جدوى الألسنية ؟ »[٣] .

---

(١) سوسير / دروس في الألسنية العامة ص ٢٤ ويرجع إلى ص ٢٥ ففيها إيضاح.

(٢) تمام حسان/ مناهج البحث في اللغة / دار الثقافة / الدار البيضاء / المغرب/ ط الثانية عام ١٩٧٤م ص ٢٧٠

(٣) سوسير / دروس في الألسنية العامة ص ٢٥ وينظر ما بعده ص ٢٥- ٢٦

مواقف اللغويّين منه :

إن موقف المشتغلين بعلم اللغة العام من الغربيين واضح يجلّيه مقالة جون ليونز: « أهم ما يعنينا الآن أن علم اللغة – كما نعرفه اليوم – ما هو إلا تطوّر لمعارضة واعية لخصائص المناهج التقليدية في الدراسة اللغوية خلال القرون الماضية »[١] .

« أغلب جمهور المشتغلين بالدراسات اللغوية يرفض النَّظر في هذا العلم الجديد ، أولا يحاول تفهُّمَهُ ، أو يعجب أن ما بيده من علم قد يحلّ محلّه علم حادث ، وفد من « البلاد الغربية » وخيرهم ظنًّا بهذه الدراسة الجديدة وبالقلة القائمة بها من أبناءِ العربيّة يعدّ علم اللغة أو بعض فروعه ، كعلم الأصوات اللغويّة ترفًا علميًّا لم يئن الأوان بعد للانغماس فيه أو التطلع إليه! »[٢] . هكذا يقول محمود السعران .

يغلو أصحاب علم اللغة الحديث من العرب فيه أكثر ممّا يغلو فيه أصحابه الأصليّون ، حتى جعله بعضهم بديلًا عن الدراسات اللغوية القديمة ، حتى قال السعران : « إنّ علم اللغة هو وجهة النظر الجديدة ، أو الفلسفة الجديدة التي حلّت محلّ وجهات النظر القديمة ، والفلسفات اللّغويّة السابقة ، و« علم اللغة » قد تجنّبَ أخطاءً جوهريَّةً في الفلسفات اللُّغويَّةِ القديمة . وقد قدَّم مبادئ لم يعد شكَّ في أنّها أكمل وأشمل وأصدق وأضبط ، واعتمد على وسائل وآلاتٍ أدقّ مرّاتٍ ومرّاتٍ من وسائل الأقدمين وآلاتهم .

إن علم اللغة الحديث بالنسبة إلى الفهم اللّغويّ القديم كعلم الطبيعة أو

(١) جون ليونز / نظرية تشومسكي اللغوية ص ٣٩

(٢) محمود السعران/ علم اللغة/ مقدمة للقارئ العربي ص ٢٢

الكيمياء أو الفلك ، أو الرياضياتِ بالقياس إلى نظائرها عند اليونان مثلًا. ولكنَّ العجَبَ في الأمر أنّنا في درسنا وتدريسنا الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات لا نجد غضاضةً أو غرابةً في أن ندرسها وندرِّسها كما هي عليه في أحدث صورها ، أمّا ما كان عند القدماءِ من ذلك فنحن نعرض له في تواريخ تلك العلوم ، أو بغيّة الوصول إلى أفكارٍ أو آراءٍ أو فروضٍ أو محاولاتٍ موحية خلاّقة ، فالعلم الجديد ، وهو تطوّر للعلم القديم لا يقضي على القديم ، إنه يؤرِّخ له ، ولا يزال يستوحيه ويستهديه.

وهذا هو الشأن في « علم اللغة » الحديث ، إنّه ، وهو المنهاج الجديد في فهم اللغة ودراستها ، يوصي بدراسة جهود الأقدمين والتنقيب فيها لتأريخها التأريخ الصحيح ، ولاستيحائها واستهدائها[١] .

« إنّ فهمنا نحن المتكلمين بالعربيّة وجمهرة دارسيها منا لطبيعة اللُّغة ووظيفتها وطرائق دراستها فهمٌ جِدُّ متخلّف ، ومعظم إنتاجنا في الميادين اللّغويّة قاصر ومقصر ، وإنّا لنعالج أحيانًا مشكلاتٍ لغويَّةً خطيرةً على جَهْلٍ بما يراه العلم اللغّويُّ الحديثُ من البسائط والأوّليّات . ومن ذلك أنّ علماءنا يتحدّثون عن « تيسير النحو » ، وعن تيسير العربيّة وترقيتها » وعن « إصلاح الكتابة العربيّة » . وعن « العامية والفصحى » ، وعن « التعريب » و« النحت » و« الاشتقاق » ويقضون في كلِّ هذا ، ولو كانت لأغلبهم معرفة بنتائج علم اللغة وبشيء من الدراسات اللغوية الحديثة لكان لهم في هذه الموضوعات العلميّة التطبيقية أقضيةٌ أخرى أسلم أصلًا ، وأوضح سبيلًا »[٢] .

---

(١)المصدر السابق ص ٢١-٢٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٣

يأخذ السعران على مجمع اللغة بالقاهرة عدم استعانته بالحقائق والأصول العامة التي يقدمها « علم اللغة » ولو كانت دراستنا للغة من حيث هي لغة حيّة ومتقدّمة – كما يقول السعران – لكان للمجمع أن يجد الوسائل مهيّأة لتحقيق معظم أغراضه العلميّة ، ولكنّ دراستنا للغة جامدةٌ متخلّفةٌ ، فالوسائل التي يستعين بها المجمع في معظم الأحوال وسائل جامدة قاصرة ، إنّها أدواتٌ غير مغنيةٍ في عصرنا الغناءَ الكافي ، ولذلك نرى أنّ ممّا يعين المجمع اللّغويِّ على تحقيق أغراضه أن يعمل ، أو يعين أوّلًا على نشر « علم اللغة » بالعربية ، وعلى تبسيطه وتقريبه حتّى تتضح السبل ، وتدقّ وتسلس أمام المفكرين في المحافظة على « سلامة العربية » وفي تحقيق سائر أغراض المجمع .

كما يأخذ على الجامعات ضعفَ عنايتها بعلم اللغة وبالدراسات اللغوية الحديثة وهي « عنايةٌ ضئيلةٌ » في نظره[١] .

* * *

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٥-٢٦

نقد تطبيقات علم اللغة العام :

هناك نفور من تطبيق بعض الحقائق التي توصَّل إليها علماءُ اللُّغةِ الوصفيُّونَ والمقارنون على المشاكل العلمية كتعليم اللغة ، من مثل :

١ - إعطاء التقسيم المقطعي (المقاطع) أهمية زائدة .

٢ - المبالغة في دراسة جوانب من الأصوات مثل التماثل أو التقارب بمحض الصدفة ... وما ينتج من فونيمات أصلية أو عنقودية في بعض اللغات[١] .

لم يكن علم اللغة العام قادرًا على فرض منهجه البحثي على الساحة اللغوية ، خاصة في مجتمع ماديٍّ يروم المصلحة والكسب المادِّيّ فنشأت أنواعٌ من علم اللغة تخرج عن أسس علم اللغة العام بما تتطلع إليه من إنجازات تربويّة ، ومكاسب مادّيّة ، فنشأ علم اللغة (التطبيقي الذي يشمل الترجمة الفوريّة والتربويّة) [٢] .

(وقد أدخل بعضهم تحت « علم اللغة التطبيقي » علم اللغة النفسيّ ، وعلم اللغة الاجتماعي ، وعلم اللغة الآلي (للحاسبات) وصناعة المعجم ، وتعليم اللغات وهو أهمّها، بل جعله بعضهم علم اللغة التطبيقي ، « وتوجد إلى جانب تعليم اللغات دراسات أخرى وثيقة الصلة بها ، مثل : التقابل وتحليل الأخطاء ، وتصميم اختبارات اللغة ، وطرائق محو الأميّة »[٣] .

---

(١) ينظر التفصيل لدى ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٥٨-٢٥٩

(٢) ما بين القوسين من عبد الصبور شاهين في علم اللغة العام/ مؤسسة الرسالة/ ط الرابعة / عام ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م بيروت

(٣) انظر توفيق محمد شاهين / علم اللغة العام / مكتبة وهبة/ القاهرة/ عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ص ٣١-٣٣

أوهام راسخة من وجهة نظر علماء علم اللغة الحديث :

« ومن الصعوبات التي على الباحث العربي أن يذلّلها « الأوهام » الراسخة في عقولنا نتيجة دراستنا لجوانب من النشاط اللّغويّ العربي القديم ، وهذا عمل خطير شاقّ ، قد لا يأتي إلاّ بعد تقويم الدراسات اللغوية العربيّة بأسلوب جديد ، وإلاّ بأن يكون عرض أصول « علم اللغة » الجديد عرضًا يجمع إلى الدقّة والصحة الوضوح والبيان ، وإلاّ بالنّصّ على الفروق بين التّصوّراتِ المختلفة للّغويّين ، وإلاّ بسوى ذلك من أمور »[١] .

ومن هذه الأوهام :

١ - أن القارئ العربي سيشرع في قراءة هذا العلم الجديد ، وفي ذهنه « مسلّمات » لا يسلّم بها هذا العلم ، ومن هذه « المسلّمات » ما يمسّ مسائل جوهريّة كأقسام الكلام ، فالكلمة عندنا « اسم » أو « فعل » أو « حرف » ونحن نرى أن هذا التقسيم عقلي عام ، بمعنى أنّه صادق على جميع اللُّغات ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

ولكن الدراسة اللغوية الحديثة ترى أنّ هذا التقسيم لا يتصف بصفة « العموم » وترى أنّ المرجع في تقسيم الكلمة هو اللغة موضوع الدرس ، فقد لا يصدق على لغةٍ ما يصدق على أخرى ، أيْ : أنّ تقسيم الكلمة ينبغي أن تحدِّده طبيعة الاستعمال اللغويّ في كلِّ لغةٍ ، لا أن يبدأ درس لغة من اللغات بالبحث عمَّا فيها من « اسم » و« فعل » و« حرف »[٢] .

٢- من أخطر ما رسخ في عقولنا عدم التمييز بين الدراسة الوصفيّة والدراسة التاريخيّة للّغة.

---

(١) محمود السعران/ علم اللغة/ مقدمة للقارئ العربي ص ٣٧

(٢)المصدر السابق ص ٣٨

ونحن نعتزّ بعربيّتنا اعتزازًا يخيّل إلينا أنـها لم تتغيَّر منذ أنزل القرآن الكـريم ، أو أنـها لم تتغيّر إلاّ في أقلّ القليل ، فنحن في دراسة مسألة ما قد نستشهد بشاهدٍ جـاهليّ إلى جوار شاهد من صدر الإسلام ، إلى جوار شاهد عبّاسيّ ، وهكذا.

نحن في حاجةٍ إلى أن نتقبّل أن اللّغة العربيّة « الفـصحى » في حياتـها الطويلـة الخصبة، مع محافظتها البالغة بوجه عامّ ، قد طرأت عليها تغيُّرات في هذا الجانـب أو ذاك ، وأيًّا كان كنه هذه التغيُّرات ، فهي في نظر العلـم « تغـيّرات » يجـب أن تـدرس دراسة موضوعيّة منزّهة من الأهواء ... إلخ[١] .

يقول أولمان : « اللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال ، على الرغم من بطء تغيرها وحركتها أحيانًا ، فالأصوات ، والتراكيب ، والعناصر النحوية ، وصـيغ الكلمات ، ومعانيها معرّضة كلها للتغير والتطور ، على اخـتلاف في سرعتـه حـسب الأزمنة ، والعناصر موضع التغير »[٢] .

ويقول: ماريوباي : « الاتجاه الطبيعي للغة ، وبخاصـة في صـورتها الدارجـة أو المتكلمة هو اتجاه يبعده عن المركز ، فاللغة تميل إلى التغيّر ، بعاملي الزمان والمكان إلى حدٍّ لا توقف تيّاره عوامل الجذب نحو المركز »[٣] .

هذا أشبه بالمسلمة في علم اللغة ، ونحن لا نخالف في ذلك في لغـات البـشر مـا عدا العربية لـ « أنها ارتبطت بالقرآن منذ أربعة عشر قرنًـا ، ودُوِّنَ بهـا تـراث يتـصل بالقرآن ، وهو محفوظ بحفظ الله ، وهذا أمر تمتاز به العربية عن غيرهـا مـن اللغـات

(١) المصدر السابق ص ٣٩-٤٣

(٢) رمضان عبد التواب / التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض / ط ثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م نقلا عن أولمان / دور الكلمة في اللغة ص ١٥٦

(٣) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ١١

ذات العمر القصير والتحول السريع بخلاف العربية التي يمتد عمرها لأكثر من خمسة عشر قرنًا ، يتناقلها الآخرون عن الأولين نطقا وكتابة[١] .

فاللغة العربية ثابتة من وجه ، متطورة من وجه آخر تطورها من خلال حركة حول محور أو مركز ثابت ، يشد إليه كل تغيّر وإحداث ، وإضافة ، يمكن لنا أن نمثّله بالدائرة ومركزها ، فالمركز يعني الثابت ، والدائرة تعني حرية في الحركة داخلها مع وجود رابط يشدّ كلَّ ما ندّ إلى هذا المحور أو المركز ، لو أخذنا المجاز مثلا لوجدنا الأصل الثابت هو الوضع اللغوي ، والأصل المتطوّر هو الاستعمال المجازي الطارئ ، الذي تنظّمه علاقة تشدّه إلى المحور ، وتمنعه من الخروج عن الدائرة ، وقرينة تميّز بينه وبين المعنى الحقيقي.

٣- ومن أخطر ما هو راسخ في أوهام النَّاشئة من دارسي اللُّغة عندنا ، تصُّور العاميّة أو العاميّات تصوّرًا يكتنفه الخطأ ، أو يلابسه الوهم ، فالعاميّة عندنا منحطة ، أو صورة فاسدة من الكلام العربيّ « الفصيح » « الصحيح » ، ولقد يشتدّ الوهم بجماعةٍ منهم فيرى أنّها لا تجري على قواعد أو أصول ، ولا يسهل عليه أن يتصوَّر أنّها باعتبارٍ ما «لغة» كأيّة لغة يمكن الكشف عن قواعدها ووصف حقائقها ، وأنّ في حيِّز الإمكان أن تصبح لهجةٌ من اللهجات « العامية » لغة عامّةً مشتركة أو لغةً أدبيّةً فصيحةً في يومٍ من الأيّام ، ومعنى هذا أنّ مفهوم العلاقة بين اللغة واللهجاتِ ومفهوم تطوّر اللُّغات لا يزالان غريبين على أذهان كثيرٍ من طلاّبنا »[٢] . في حين يقرر علم اللغة تساوي جميع اللهجات؛ إذ جاء في كتاب نظرية تشومسكي اللغوية : « ومما هو جدير بالذكر ...أن اللهجات الاجتماعية أو الإقليمية لأيّ لغة ... ليست

(١) ينظر رمضان عبد التواب / التطور اللغوي ص ١٢-١٤

(٢) محمود السعران ص ٤٣

أقلّ انتظامًا من اللغة الفصحى ، بل لا ينبغي وصفها بأنها صورة مشوّهة منها ... إنّ كثيرا من الناس يعتقدون أن اللغة الفصحى التي تُعَلَّم في المدارس هي وحدها الخليقة بالدراسة العلمية والمنهجية ، والحقيقة غير ذلك ؛ لأن جميع اللهجات تتساوى في نظر علم اللغة من هذه الناحية »[١] .

« يأخذ محمد فرج عيد على اللُّغويّين والنحاةِ حرصهم في جمع اللغة وتقنينها على نقائها ، وحصرهم المصادر التي يأخذون عنها ويعتمدون عليها دون غيرها في تسجيل ما سمّاه «اللغة النموذجيّة » ويتمنّى لو تركت اللغة العربيّة للتّطوُّر الحرّ ، وانحصر عمل النحاة واللُّغويّين في تسجيل هذا التطوّر. وهو يأخذ عليهم إهمال دراسة اللهجات ؛ لأنهم خضعوا لعرفٍ شائعٍ مؤدّاه (أنّ اللغة تتغيَّر. وهذا التغيُّر يسير بها إلى الأدنى) ويعلّق على هذا العرف بأنّه صادق في شقّه الأوّل ، دون الثاني »[٢] .

« فالنحو – في نظر كارناب – إنّما يقرّر القواعد التي تنبني على أساسها الجمل ، لا كما في نظر الدراسات الوصفيّة : علمٌ يَصِفُ طرقَ الاستعمال اللُّغويّ في مرحلةٍ خاصَّة من مراحل تاريخ اللغة المدروسة ، وأوّل همّ الدراسات اللغوية ككل علم آخر : أن تلاحظ الحقائق والظّواهر التي عليها أن تعالجها، فتقسمها، وتعبر عنها منهجيًّا، وكل دراسة تقتصر على هذا تسمّى دراسة وصفيَّةً »[٣] .

---

(١) جون ليونز / نظرية تشومسكي اللغوية ص ٤٥-٤٦

(٢) محمد محمد حسين/ فقه اللغة بين الأصالة والتغريب / مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ص ٢١٢ وانظر محمد فرج عيد/ دراسة النحاة للغة/ مجلة كلية اللغة العربية العدد الثامن ص ١١٨-١١٩

(٣) تمام حسان / اللغة بين المعيارية والوصفية / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة/ عام ١٩٥٨م ص ٢٦ وترجمة عن غيره.

« والنحو الوصفي لا يشغل نفسه بأمور التربية ، ولا بأن يسنَّ القواعد لمعلِّم اللغة ؛ لأنه حيث توجد السليقة لا توجد الأخطاء ، ولا ما يوصفُ من الاستعمال بالجودة أو الرداءة . وإنما توجد فقط نواحٍ مختلفة من اللغة تتطلب الوصف »[١] .

٤ – ومن الأوهام العظيمة المتمكّنة في أنفس الغالبيّة من طلاّب اللغةِ عندنا عدم التفريق بين « النحو » وبين « اللغة » التي يدرسون نحوها ، حتى إنّ معظمهم يظنُّ أنّ العربيَّة الفصحى هي هذا النحو ، أو أنّ العرب كانوا فصحاء ؛ لأنهم كانوا قادرين على أن يتكلّموا هذا الكلام المعرب الفصيح الصحيح دون دراسة للنحو !» [٢] .

صعوبات تواجه علم اللغة في العالم العربي :

١ – صعوبة المصطلح أي « وضع مصطلح هذا العلم بالعربية ، إنّ هذا العلم يتضمَّنُ تصوُّراتٍ لم تقمْ في أذهان لغويّي العرب ، وقد لا يصلح للتعبير عنها مصطلحات عربيّة رسخت دلالاتها وتبلورت ، وقد يكون من الخير تجنُّب استعمالها حتَّى لا يختلط معناها الأصيل بالمعنى الحديث الذي يراد بها أن تدلّ عليه »[٣] .

« سيضطرّ الباحث العربيّ إلى وضع بعض المصطلح الجديد ، وقد يحتفظ أحيانًا بالمصطلح الأجنبيّ حتّى يحين الوقت – بعد الإكثار من التأليف ومدارسة أصول هذا العلم الجديد وفروعه – لظهور مصطلح عربي أصيل سائغ .

وإن الاطلاع على ما كتب بالعربيّة تعريفًا بهذا العلم ، وهو جدّ قليل لشاهد

---

(١) الكلام له بقية مهمة يحسن الرجوع إليه.

(٢) محمود السعران / ص ٤٣ تقديس النحو ، وإمكانية وضع نحو مغاير على أسس أخرى .... ثم كلام آخر مهم ص ٤٤-٤٥ وهذا تشكيك في النحو ، وفتح باب واسع للتغيير والتطوير.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩

بمدى الصعوبة التي يعانيها الكاتب والقارئ جميعًا في هذا المجال ، فقد اختلف المؤلّفون والمترجمون، وهذا طبيعيّ ، في المصطلحات الدالّة على معانٍ واحدة ، حتّى إنّ المطلع المبتدئ ليقع في البلبلة والحيرة والاختلاط »[١] .

« اضطرب بعض المؤلّفين والمترجمين فترجم المصطلح الأوروبيَّ بلفظٍ معيّن مرة ، ثم ترجم المصطلح نفسه مرّةً في نفس الكتاب بلفظٍ آخر .

ومنهم من ترجم مصطلحين مختلفين بلفظٍ واحدٍ ، ومنهم من دلَّ بمصطلح عربيّ قديم محدد المعنى على تصوّرٍ جديد ، وربّما استعمله بحيث لا يتبيّنُ القارئ المقصود من الكلام ، وخاصّةً عند ما يرد في نصّ واحدٍ المصطلح العربيّ مرادًا به المعنى القديم ، ونفس المصطلح مرادًا به المعنى الحديث / دون أدنى تنبيهٍ من الكاتب »[٢] .

تغيير مدلول المصطلحات وتطوّها :

« ليست مصطلحات علم اللغة مصطلحات عالميّة ، فلا بدَّ من التنبُّه في كلِّ حالٍ إلى المقصود بالمصطلح في السياق الذي يقع فيه وعند الكاتب الذي يستعمله أن كلمة Semantique أوّل نشأتها كانت تدلّ على دراسة التغيّر في معاني المفردات أي : على دراسة المعاني من الناحية التاريخية ، ولكن مدلولها الآن يختلف عن هذا ، وكذلك الحال في كلمة مثل Phoneme مدلولها القديم غير مدلولها المعاصر عند معظم الكتاب .

إنّ علم اللغة الذي يؤدّى باللغة الإنجليزيّة مثلًا مقصود به العالم الذي يستعمله

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩

(٢) المصدر السابق ص ٣٦-٣٧

في جماعةٍ تتكلّم اللغة الإنجليزيّة ، وهكذا فعلم اللغة في البلاد العربية يجب أن يؤدّى بالعربية عن العربية ، وعن غيرها من اللغات كالإنجليزيّة أو الألمانيّة أو العبريّة »[١] .

كثرة المصطلحات واختلافها وغموضها :

« هناك نقد حقيقيّ يوجَّه إلى الدراسة الوصفية للغة ، وهو خاصٌّ بكثرة مصطلحاتها وتعدُّدِها بشكلٍ ملحوظةٍ وهناك تفسير لهذا ...» [٢] .

يتحدث عن تعليل كثرة المصطلحات وتعدَّدها للشيء الواحد أو كثرة اختلاف المصطلحات بين عالمين وأكثر .مع غموض المصطلحات ...

إنّ الحديث عن غموض المصطلح وغبش المفاهيم سمة هذا العلم ، ومقابلة مصطلحاته بما لدينا من مصطلحات خطأ فادح ؛ إذ لا تتوافق هذه المصطلحات من كل وجه ، ولكلٍّ منها سياقٌ وردت فيه ، هذا السياق يتألف من الإطار الفكري الذي ولدت وترعرعت فيه، ثمّ ما تدلُّ عليه من موضوعاتٍ ، وما تسمو إليه من مقاصد.

ففقه اللغة لا يقابل الفيلولوجي. والفونيم لا يقابل الصوت ، والمورفيم لا يقابل الصرف ، وإن اشترك معها في كثيرٍ من الموضوعات.

إن فقه اللغة عند الغربيّين يعني دراسة النصوص القديمة في النقوش والمخطوطات وسائر الآثار هو مفهوم تمليه طبيعة اللغات الأوروبية التي تتسم بالتغير وسرعة التطوّر ، مع عدم رجوعها إلى أصل ثابت كالعربية في حين يعني فقه

(١) المصدر السابق ص ٨٢

(٢) ينظر ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٥٧

اللغة عندنا دراسة متأخرة في الترتيب بعد إتقان أساسيّات العربيّة من نحوٍ وصرفٍ ، وإلمام بالمعجم أصوله ومفرداته. وله من اسمه نصيب إذ يتناول أصول اللغة، ودلالات الألفاظ ، وأسرار التعبير اللغوي صوتًا ، وصرفًا وبنية ، ودلالة. وهو علم يتغلغل في علوم العربية ولا يغني عنها ، بل يفتقر إلى أساسيّات علوم العربية. في حركةٍ تتآخى فيها علوم العربية ، ولا تتنافر.

الميل نحو الغموض والإبهام :

« هناك اتجاه ظهر لبعض الوقت في علم اللغة الوصفيّ ، وهو الميلُ نحو الإبهام والغموض ، وإنّ النزول بعلم اللغة الوصفيّ إلى مستوى القضايا والنظريات الرياضيّة ... لا يحقِّق أيّ منفعةٍ لا لعلم اللغة ولا للرياضة . إنّ موضوع علم اللغة هو اللُّغةُ ، وإذا عجز علم اللغة عن أن يجعل نفسه واضحًا ومفيدًا في أبحاثه وموضوعاته التي يتناولها من غير الاستعانة بعلم لا توجد بينهما علاقة واضحة – فقد فشل في أداء مهمّته. ومثل هذا يقال عن المبالغة في استعمال أبحاث الفلسفة أو علم النّفس أو ما وراء علم اللغة ، المبنيّة على مجرَّد مزاعم غير ثابتةٍ. إن علم اللغة يجب أن يكون واقعيًّا. لا باحثًا فيما وراء الطبيعة »[1] .

صعوبة علم اللغة :

على « علماء اللغة الوصفيّين أن يدركوا أنّ التعقيدات غير الضّروريّة التي يخضعون لها علمهم لا تساعد على انتشار منهجهم أو جعله مرغوبًا فيه ، وكثيرًا ما سمعنا شكاوى من دارسي علم اللغة أنهم لا يفهمون أيَّ شيءٍ منه ، ويمكن نسبة هذه الشكاوى إلى التقصير في الإعداد أو إلى نقص الاستعداد الذكائي ، وإنّ هناك

(١)المصدر السابق ص ٢٥٧

عبئًا ثقيلًا ملقىً على كواهل أولئك الذين يريدون نشر أيِّ علمٍ وجعله قريبًا إلى عامّة المثقفين ليكسب أنصارًا وأتباعًا جددًا ، وهذا عن طريق استخدام مصطلحاتٍ متَّفقٍ عليها ، ومناهج مناسبة ، والكف عن الاشتغال بالمسائل التافهة »[١] .

عناية علم اللغة « ومعالجته للجزئيّات الدقيقة ، ووصف نقاطٍ ذاتِ أهميّة ضئيلةٍ ، أو منفعةٍ قليلة ، في تفصيلاتٍ واسعة ، ويغنينا مثلًا وضع نظام عام للتنغيم ودرجة الصّوت ، والمفصل(المقطع) في لغةٍ معيّنة عن معالجة ذلك ببساطةٍ بلغة الأفراد وطرائقهم الخاصّة ؛ لأنّه توجد خلافاتٌ كثيرةٌ بين المتكلمين والأفراد. مع ضآلة القيمة العلمية لمثل هذا العمل؛ إذ اللغة تعتمد إلى حدٍّ كبيرٍ على السِّياق لتحقيق التفاهم ، وهي تتضرَّر كثيرًا بذكر التفصيلات والخصائص الدقيقة التي نادرًا ما يلاحظها السامع »[٢] .

* * *

« في الوقت الحاضر ما يزال علم اللغة الوصفيّ في أوّل الطّريق ، وحينما يستخدم الناس كلمة علم اللغة من غير إضافة صفة كاشفة فإنهم يعنون – غالبًا – علم اللغة الوصفي أو التركيبي . وإن علم اللغة الوصفي يشكل ، بل يجب أن يشكّل الأساس للدراسات اللغويّة ، وإن كانت هناك خطورة إعطائه أهميّةً أكثر من اللاّزم . وإنَّ الإسهام الكبير الذي قدَّمه علم اللغة الوصفيّ ليتمثَّل أساسًا في النّواحي الصَّوتيّة والفونيميّة التي تعدّ أكثر فروع اللغة موضوعية ، وأقربها إلى المناهج العلمية ، والمقاييس الدقيقة .

أمّا في مجال الصرف والنحو فهناك قدر كبير من الشكّ حول ما إذا كان في مقدور المنهج الوصفي ومصطلحاته تقديم مزايا أكبر من تلك التي قدَّمها سابقه

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٨ بتصرف

المنهج التاريخي.

وحينما نأتي إلى مجال المفردات نجد علماء اللغة الوصفيّين يخلون الطريق لزملائهم التاريخيّين ، وهو ما ينطبق كذلك على مجال الدراسة الاشتقاقيّة ، أمّا فيما يخصُّ علم المعنى فإنّ المفردات تذهب لتنضمّ للمورفيمات وللنحو لتشكل جميعًا الدستور الذي يميز الاستعمالات الصحيحة من الخاطئة »[١] .

* * *

من أخطر ما يدعو إليه علم اللغة أن يكون بديلًا عن دراسات العربية ، وأن يجعل ما يسمِّيه « الدراسات الصوتيّة » بديلًا عن « العناية في مراحل التعليم التي تسبق الجامعة بحفظ القرآن الكريم وتجويده ، وإسناد ذلك إلى متخصّصين في تجويد القرآن ... ؛ لأنَّه الأصل الصحيح الذي استقامت به الألسنة »[٢] ...

إنهم جعلوا التراث العربي على ضخامته مصدرًا من مصادر علم اللغة ، عليه أن يفيد ويدرس منه . مثل العروض – الصرف[٣] – وهذا من قلب الحقائق ، وعكس الأمور.

ونحن نعدُّ التراث مصدر اللغة ، ودليلها الذي يجب تلقيه بالقبول ، وأن يرفض ما خالفه .

تحدث علي عبد الواحد وافي عن الانتفاع ببحوث علم اللغة من النّاحية العمليّة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧-٢٣٨

(٢) وانظر بقية الكلام / محمد محمد حسين / مقالات في الأدب واللغة / مؤسسة الرسالة / ط الأولى عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ص ١٤-١٥

(٣) محمود السعران ص ٩٥

فقال: «من الممكن أن يقام على القواعد التي يكشفها علم اللغة بحوث فنّية ترشدنا إلى ما ينبغي عمله في مختلف الشّئون اللّغوية ، فترشدنا مثلًا إلى خير الوسائل التي ينبغي اتخاذها في تعليم اللغات الحيّة وغيرها ، وفي وضع كتب القواعد والأدب وطرق تدريسها ، وفي اصطلاح قواعد الإملاء والشكل والترقيم ، وفي تدوين معجمات اللغة وضبط مفرداتها ، وتحديد دلالتها ، وفي النهوض باللغة ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن أو تحريف ، وفي تهذيب مصطلحاتها ، وتوسيع نطاقها ، وترقية لهجاتها العامية وإدخال مفردات جديدة على مفرداتها ، وفي إحلال لغة أخرى محلّها ، وفي إنشاء لغة عالميّة يتحدّث بها جميع أفراد النوع الإنساني . وما إلى ذلك من الشئون اللغوية التي تستأثر الآن بقسطٍ كبيرٍ من نشاط الباحثين والمصلحين والتي من أجلها تنشأ المجامع اللغويّة والأكاديميّة وينظم عدد كبير من المؤتمرات المحلّية والدّوليّة ... إلخ »[1] .

وهذا كله يناقض ما بنى عليه علم اللغة العام (الحديث). فتصوّر وافي يخالف التصوّر الذي عند متأخّري اللغويّين العرب (أصحاب علم اللغة العام) .

* * *

تعامل هذه اللغة معاملة دينها في المصادر ، فمصدر دينها الوحي : الكتاب والسنّة ، لا يصح أن يضاف إليهما شيء من كلام البشر ، ولا أن يلحق بها شيء من آرائهم ، وفلسفتهم الكلاميّة ، كاللغة في قواعدها لا يصح أن يكون لها مصدر غير ما اعتبره أهل العربية مصدرًا لها من كلام العرب الصّحيح الثابت ، الذي توافرت فيه شروط الحجّيّة.

(١)علي عبد الواحد وافي / علم اللغة / ط السادسة / دار نهضة مصر/ القاهرة/ عام ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م ص ٢٥-٢٧

وعلم اللغة الحديث على عكس هذا ، لا يقيم لهذا وزنًا ، يسوّي بين الكلام وإن اختلفت مصادره ، وتباين متكلموه ، موطنًا ، وزمنًا ، وصحةً.

المقارنة بين اللغة والدين :

لتطبيق الإسلام صورة مشرقة وضّاءة تمّت تحت بصرِ ورعاية معلِّم البشرية الخير (صلى الله عليه وسلم) وصار ذلك النموذج المثال الذي يطمح إليه المصلحون والدعاة ، حين يرفضون واقعهم المخالف له ، ويسعون إلى إصلاح ما فيه من عوج في القيم ، والأخلاق ، والسلوك ، والعبادة ، وأنشطة الحياة الأخرى.

ولا أحد يعيب من يتطلع إلى ذلك ، ويحصل من التطلع والدعوة خير كثير ، فيعود الناس إلى استيحاء تلك الصورة المشرقة فيتمثلون منها في حياتهم ما هم قادرون عليه ، وما هو بمكنتهم ومستطاعهم وتبقى صورة المثال والنموذج شاخصة ماثلة أمام أبصارهم.

ولغة هذا الدين شبيهة به لها صورة نموذجية ومثال يطمح إلى تطبيقه واحتذائه المربون والمعلمون والمؤدبون ، وشداة الإصلاح اللغوي . يتعرفون واقعهم ، وما فيه من بعد وانحراف عن المثال ، ويأخذون بأسباب القرب منه وتمثله بالأسباب العلمية والتربوية من تعليم وتأديب ، وتنظير وتأليف ، تهدف إلى تقريب اللغة وإجرائها على اللسان سليقة دون تكلّف . وهذه ميزة انفرد بها ديننا ولغتنا من دون الأديان واللغات.

« إنّ بعض اللّغويّين يؤمنون بأنّ « اللّغة هي ما يتحدّثه النّاس ، وليس كما يظنّ بعضهم هي ما ينبغي أن يتحدثه النّاس ». وهذا من وجهة نظرهم يشمل اللّهجات المحلّية والعامية والصيغ غير النموذجية بوجهٍ عامٍّ ، ويجعلها كلّها على قدم المساواة مع اللغة النموذجية. وأيُّ إنسانٍ يختلف مع وجهة النظر المتطرفة هذه متهم

بالأرستقراطية ، وتقييم (تقويم) الأشياء بناءً على ذوقه الخاصّ .

إنّه من الممكن قبول القول بأنَّ الصيغ العامية واللهجيّة وغير النموذجيّة كلها صيغ حيَّة مستعملة. ومن الممكن أيضًا قبول القول بأنّ كثيرًا من هذه الصيغ كان في الماضي داخلًا ضمن اللغة النموذجية ، ومنظورًا إليه نظرةَ احترام وتقدير ، وإنّ التقليل من قيمة أيّ من هذه الصيغ ، والنظر إليها على أنّها أقلّ من النّاحية الأدبيّة والجماليّة ليعدّ شيئًا فرديًا، كما أنه يعد تفضيلًا ذاتيًا ، ومع هذا فإنّه يجب أن يظلّ واضحًا أنّ بقاء مثل هذه الصيغ اللهجية غير النموذجية من الكلام يؤدّي إلى تعطيل تيّار التفاهم ، الذي يعدّ – قبل كلّ شيء – الهدف الأساسي للغة. وإنّ الالتزام اللغويَّ لا يختلف عن أيّ نوع آخر من أنواع الالتزام الاجتماعي ، فإذا كان مرغوبًا أن تملك نظامًا موحدًا للمرور حتّى لا يصاب السائقون في مناطق غير مناطقهم بالاضطراب ، ولا يقعوا في حوادث تصادم فإنّ من المرغوب فيه على قدم المساواة في المناطق المتحدة سياسيًا أن توجد بعض المقاييس التي تؤدّي إلى الوحدة اللغويّة ، وتقلّل من سوء التفاهم، ونقص وسائل الاتصال ، وهؤلاء اللغويونّ الذين ينادون بمبدأ « دع لغتك وشأنها » واستعمل / أي صيغة لغويّة تعجبك ، إنّما يسيئون إلى اللغة ، ويقضون على أهم أغراضها ، وهؤلاء يعترفون ضمنيًّا بخطئهم في هذا الرّأْي حين يبالغون في كتاباتهم في الحرص على أن يتجنّبوا المحلّية والعامية والابتذال ، حتّى الأساليب الدارجة،ويتوخّوا لغةً صحيحة أنيقةً قد تنحرف بهم نحو التكلّف والتقعّر»[1] .

* * *

(١) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢١٣-٢١٤

يقرّ أصحاب علم اللغة أنّه علم لم يكتمل ، وإن تكوّن[١] . ثم « إنّ هذه الدراسة الجديدة للغة لم تذع في مواطنها ، أوروبا وأمريكا وروسيا الذيوع الذي تستأهله وفرة التآليف والتصانيف فيها ، وعلى كثرة المجلاّت العلمية المفردة لها ، وعلى تعدّد الجمعيّات والحلقات والمؤتمرات التي تناقش مسائلها »[٢] .

بل اسمه لديهم غريب ، ويختلفون فيه بين علم اللغة وعلم اللغة العام ، كما يختلفون في أسماء فروع هذا العلم ووسائله وتصوّراته[٣] .

« إنّ النتائج التي أحرزتها هذه الدراسة الجديدة لمّا تدخّل برامج تدريس اللُّغات في التعليم العام ، إنّها لمّا تصبح « كلاسيكيّة » فلا تزال اللغة الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة مثلًا تدرّس في معظم المدارس كما كانت تدرس قبلًا .

إنّ هذه الدّراسة الجديدة للغة لا تزال وقفًا على المتخصّصين فيها ، وعلى القلّة من مريديهم ، فالمحدثون من علماء اللغة يشكون من أنّ غالبيّة المشتغلين بالمسائل اللّغويَّة ، بله جمهور المثقفين ، لا يزالون يجهلون أنّ ثمة نشاطًا « علميًّا » جديدًا يتّخذ موضوعًا له «اللغة ».

فمفهوم الدراسة اللّغويّة عند كثيرٍ ممّن لم يتّصل بالعلم الجديد عن قرب ، أنها أحد شيئين :

١ -النشاط التقعيديّ ، الذي يضع أو يستنبط قواعد تميّز صحيح الكلام من خطئه ، وجيده من رديئه ، في الهجاء ، والصرف ، والنحو ، والبلاغة .

---

(١) محمود السعران ص ١٥

(٢) المصدر السابق ص ١٥

(٣) انظر المصدر السابق ص ١٦

٢ – معرفة عددٍ من اللغات غير الأمّ. وهذا خلاف ما عليه علم اللغة[١] .

التسوية بين اللُّغات :

« من وجهة النظر الوصفيّة البحتة فإنّ علماء اللغة الوصفيّين على حقّ في اعتبارهم كلَّ اللّغة واللُّغات على قدر واحد من المساواةِ ، ولكن هناك ثلاث وجهات نظرٍ أخرى ، لا بدَّ من أخذها في الاعتبار ، وكلها مبنيّة على الحقيقة والواقع ، وهي قائمة على أساس العوامل التاريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة.

فمن وجهة نظر عالم اللغة التاريخيّ لا يمكن وضع اللغات كلها على قدم المساواة ، فإنّ بعضها تحيط به أحداث تاريخيّة أهمّ من بعضها الآخر .

ومن وجهة نظر علم اللغة الجغرافيّ يجب أن نأخذ في الاعتبار تفاوت اللغات من ناحية الأهمية العملية ، وكذلك تفاوت أنماطها.

ومن وجهة النظر الاجتماعية – كما هو من وجهة نظر الشخص العادي يوجد – في مقابل أنماط غير المثقفين في كل لغة – نمطٌ يتمتّع بالمكانة والهيبة دون الأنماط اللغوية الأخرى ، وهو ما يمكن أن يسمّى بالنّمط اللّغويّ للمثقّفين . ونتيجة لذلك يظهر نفوذ بعض الأنماط اللُّغويّة دون بعضٍ حين يفاضل بينها في مجال الوظيفة والاختيار ، والمركز الاجتماعي. إنّ الشخص لا يمكن أن يغمض عينيه عن هذه الحقائق على أساس نظرية المساواة ؛ لأنّ هذه النظريَّة قد قامت على نظامٍ مختلف »[٢] .

---

(١) باختصار عن المصدر السابق ص١٦-١٧

(٢) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٣٨-٢٣٩

المفاضلة بين اللُّغات ، والنماذج داخل اللُّغة الواحدة:

١ - « إنّ عدم وضوح الرؤية بالإضافة إلى روح الديمقراطية الزائفة ليبدوانِ المسئولين عن اعتقاد بعض علماء اللغة الوصفيّين أنَّ كُلَّ اللُّغاتِ تعدّ على قدم المساواة ، ولربّما كان ذلك صحيحا من النَّاحية التّجريديَّة ، ولكن عالم اللغة الجغرافي الذي يتناول الحقائق لا التجريدات يعلم أنَّه لا احتمالَ في المستقبل المرئي لوضع لغة Ojibwa أو Menomini مثلًا على قدم المساواة مع الإنجليزيّة أو الرُّوسيّة فيما عدا جانبًا واحدًا هو النَّاحية الوصفيَّة ، أمّا من الناحية التاريخيّة أو الجغرافيّة فلا وجه للمقارنة مطلقًا »[١] .

٢ - « إنّ بعض اللُّغات تطاوِعُكَ أكثر من الأخرى وتخدمُك بصورة أفضل كوسيلةٍ للاتصال الذي يعدُّ أهمّ وظائف اللغة. ومع ذلك فلندرس بكل وسيلة ممكنة لهجات سكان الجبال أو قطّاع الطّرق سواء من وجهة النظر الوصفيّة الخالصة أو لتحقيق أغراضٍ خاصّة ، ولكن دعنا لا نعرض لدعوى أنّ كلّ أشكال اللُّغة من جميع النّواحي تعادل اللغة المشتركة التي يتحدّثُ بها كلّ المواطنين ، مع بعض الاختلافات المحلّية البسيطة »[٢] .

يرفض علم اللغة الحديث فكرة نموذج الكمال ، (المقياس) كما في الأدب. ولا يكون بعده إلاّ الانحدار والفساد « وعلماء الفيلولوجيا » الكلاسيكيّون قد نقلوا هذه الفكرة إلى الدراسة اللغويّة متخيّلين أنَّه يوجَدُ في تاريخ الإغريقيّة واللاتينيَّة نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللُّغتان بعد مجهوداتٍ طويلة ، ومن بعدها سارتا في طريق

(١) المصدر السابق ص ٢٥٩-٢٦٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٠

الاضمحلال»[١] .

ويمكن أن نقول هذا القول بعينه في اللغة الإغريقيّة. وهذه الطريقة في معالجة اللغات القديمة تقوم على الخلط الكريه بين اللغة الأدبيّة واللغة بوجهٍ عام ، اللغة التي يتكلمها جميع الناس في القطر كلّه ، والتي تغيّر مع الزمن. نعم لعلماء اللاتينيّة أن يقرّروا مثالًا أعلى للغة اللاتينيّة، وأن يفرضوه على طلاب هذا العلم في موضوعاتهم الإنشائيّة. فهذه خطَّةُ النحو المذهبيّ الذي يتلخّص في هذه العبارة التقليديّة : قُلْ: كذا ، ولا تقل: كذا ، واتباعها يتَّفق مع تقاليد الكتَّاب اللاّتينيِّين الذين كانوا يرون شيشيرون أستاذًا ومثالًا يحتذى ، ولكن هذه الخطة الصناعيّة ، لا ينبغي أن تطبق على دراسة اللغة »[٢] .

٣- « ويوجّه نفس النقد إلى الاعتقاد الخاطئ أنّ أيَّ طرازٍ داخل اللُّغة يعدُّ حسنًا كأيِّ طرازٍ آخر ، مع ما يستتبعه ذلك من النصيحة القائلة (اترك لغتك وشأنها) ودع المقادير تجري في أعنّتها. وقد ظهر ذلك بشكلٍ واضح في الجدل الملتهب الذي ثار بعد ظهور (Webster Third International Dictionary) الذي وضع طبقًا للأسس الوصفيّة التي تغفل وجود فرقٍ بين الاستعمال الجيد والصيغة النموذجيّة ، والصيغة الرّديئة والعامية وحتّى المبتذلة. إنّ الطبقيّة موجودة بين أشكال اللُّغةِ تمامًا كما هي موجودة بين اللغات»[٣] .

---

(١) فندريس / اللغة / ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص / ط بدون وتاريخ ص ١٨

(٢) فندريس / اللغة / ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص / ط بدون وتاريخ ص ١٨

(٣) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٦٠

إن علم اللغة العام ليس إلاّ قناعًا للدعوة إلى العامية بحسب أسسه وما يدعو إليه لأنه لا يفاضل بين اللغات ، ولا بين مستوياتها ؛ لأنّ اللغة في نظره « ما يتكلّمه الناس لا ما ينبغي أن يتكلّموه » فاللغة عند أصحابه مجرد وسيلة اتصال. ثمّ إنهم بتأكيدهم العناية باللغة المنطوقة وإعلاء شأنها ، والتقليل من شأن اللغة المكتوبة يدعون إلى العامية ؛ إذ معنى كلامهم بالنسبة للعربية دعوة إلى دراسة العامية ؛ لأنها اللغة المنطوقة التي يتفاهم بها الناس في شئونهم اليومية ، وحياتهم المعتادة.

ولا يقف الأمر عند هذا بل مارس المبشرون بهذا العلم الدعوة إلى العامية عملًا وتطبيقًا لما لقنوه في دراستهم الأولى ، إذ عادوا إلى بلادهم وكانت أول مشاريعهم العلمية دراسة اللهجات العامية ، وقد أبدوا حسرة على إهمالها وازدرائها ، يقول إبراهيم أنيس : في مقدمة كتابه (في اللهجات العربية) : « ودراستنا للهجات الحديثة يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها ، ونسجلها ، ونحلّل أصواتها ، وكلماتها ، دون التعرّض في البدء إلى أيِّ نوع من المقارنات ، أو الحكم على أيَّة صلة بلهجة قديمة. فإذا فرغنا من الدراسة الوصفية التحليليّة لكلّ لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد خدمنا أغراضًا جليلةً ، منها تسجيل لهجاتنا التي تكوِّن مرحلةً تاريخيَّة من حياتنا الاجتماعيَّة، ومنها إشباع رغبة العلماء منَّا في الدراسات الأكاديميَّة البحتة للهجات الحديثة ، ثمّ بعد هذا بل فوق هذا تصبح تلك الدراسة نواةً أو مادَّةً نستغلُّها في دراسة اللهجات العربية القديمة»[1] .

وقال في مقدمة الطبعة الثالثة : « ويبدو لي أنّنا لم نعد بحاجةٍ إلى مزيدٍ من البحث والتنقيب في بطون الكتب القديمة التي عرضت في ثناياها للهجات العرب بقدر ما

(١) إبراهيم أنيس / في اللهجات العربية/ مكتبة الأنجلو المصرية/ القاهرة / ط الرابعة/ عام ١٩٧٣م ص ١٣-١٤ من مقدمة الطبعة الأولى.

نحن في أمسِّ الحاجة إلى دراسة اللهجات العربية الحديثة ، فتلك هي التي نفتقدها أو لا نزال نتطلَّع إليها ، ولم نقطع فيها لسوء الحظِّ شوطًا بعيدًا برغم ما لدينا الآن من إمكانيَّات التسجيل الصوتي ، وأجهزة التجارب النطقية ، ففي بعض كلِّياتنا الجامعية معامل للتجارب الصوتية لم تستغلّ الاستغلال الكافي في دراسة اللهجات الحديثة بالبلاد العربية ، وأرجو ألاّ يمرَّ زمنٌ طويل قبل أن نجد لدينا دراسات مستفيضة ، وبحوثًا عميقة في اللهجات الحديثة. كي نستكمل معرفتنا للهجات أجدادنا من العرب القدماء »[١] .

ثم إنّ الذين لم يعمدوا إلى درس اللهجات لم يُقْصِروا عن الاستشهاد والتمثيل بشيء منها. وكأنهم بهذا يضعونها على درجة واحدة مع الفصحى. وقد غفلوا عن أن مثل هذا يسوِّغ دخول العامية إلى مناشطنا العلمية ، ويسيغ استعمالها وجريانها على ألسنتنا، ويحيطها بوقارٍ علميّ. وهذا كله ثمرة مبدأ من مبادئ علم اللغة العام. فهل من مدّكر ومتدبِّر؟!

« وزعموا أن جمعهم للهجات العامية ليس بدعًا مستحدثًا ، وأخذوا يعدِّدون بعض ما جمعه قدماء اللغويّين من لهجات القبائل ، كما أخذوا يحصون بعض ما يمكن الاستفادة منه في دراسة هذه اللهجات »[٢] .

بل زعموا « أن القصد من دراسة اللهجات ليس هو دراسة لهجة بعينها في هذه القرية من بلاد العرب أو تلك ، كما يبدو من موضوعات البحوث التي حصل بها المبعوثون على « الماجستير » أو « الدكتوراه » ولكن القصد هو تعلُّم « المنهج » فلأيِّ غرضٍ نريد أن نتعلَّم « منهجًا » في دراسة لهجات العرب العامية ، ووضع قواعد لها

(١) المصدر السابق ص ٤

(٢) محمد محمد حسين/ مقالات في الأدب واللغة ص ٤٨

إذا لم يكن ذلك تمهيدًا لإكسابها شيئًا من الاحترام برفع قدرها عند عامَّة الناس؛ توطئةً لاتخاذها لغةً للأدب والتدوين ، أو تطعيم العربية الفصحى بها على أقلِّ تقديرٍ[١] .

وزعموا أنّ المنهج لا يفيد في دراسة اللهجات العامية وحدها ، فهو منهج لغويٌّ «يصلح لأن يطبقَّ على أيِّ لغةٍ وعلى اللغة العربية الفصحى نفسها »[٢] .

* * *

« من بين الأهداف التي يهتمُّ بالوصولِ إليها علم اللغة الوصفي – كما صرَّح بذلك دي سوسير نفسه – تحقيق مبادئ قابلةٍ للتطبيق عالميًا على كلِّ اللغات »[٣] .

إنّ قصد المعرفة لذات المعرفة ، وقصد العلم لذات العلم ، وللذة العلم والمعرفة ينبع من تصوُّر غير تصوُّر الإسلام للمعرفة . بل هذا لون من الترف الذي تنتهي به حياة الأمم ، فالترفُ الفكريُّ كالترفِ المادِّيِّ سواءٌ بسواءٍ ، كُلّها إفناءٌ للعمر في عبثٍ يضرُّ ولا يفيد ، ويبعد عن الطريق ولا يُدْني منه »[٤] .

إن بعض الطيبين ينخدع أحيانًا حين يحاول الزجّ ببعض علماء المسلمين وأنهم سبقوا علماء اللغة المحدثين إلى بعض الأشياء ، وهي أمور قد تتفق ظاهرًا مع نتائج أولئك وتختلف بحسب السياقات والمقاصد. وأذكر من هذا قول بعضهم « ويأتي

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣-٥٤

(٢)المصدر السابق ص ٥٤

(٣) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٣٠

(٤)محمد محمد حسين/ مقالات في الأدب واللغة ص ٥٥

القرن الرابع فتحلّ الساعة التي يولد فيها « علم اللغة العربية » في عام ٣٨٢ هـ على يد ابن فارسٍ في كتابه « الصاجيّ » ، الّذي نعدّه أوّل كتابٍ في العالم كلّه فهم اللغة على أنها تدرس لذاتها وبذاتها ، كما نصّ على ذلك بعده بقرون العالم السويسريّ الكبير دي سوسير في كتابه الذائع الصيت »[١] .

قلت : ابن فارس بريء ممّا ينسب إليه ، وهو الحريص على أن لا يشتغل الإنسان إلاّ بما يفيده من علم اللغة ، وتدعو إليه حاجة بيانيّة أو شرعيّة. لكنّها الفتنة العمياء التي تجعلنا نركض بلا عقل أو فكر ، ونسارع إلى نسبة كل فكرة إلى علمٍ من أعلامنا ، ولو كان فيها تنقصهم ، والإزراء بقدرهم وفكرهم .

إن حصر مهمة اللغوي بأنه « يصف الحقائق لا أن يفرض القواعد » يباعد بين اللغوي وبين معلم اللغة ؛ إذ «لا ينبغي له أن يعبّر عن موقفه من موضوعه بالنّص على ما يجوز وما لا يجوز»؛ لأنّ الدراسة المنظمة للعناصر التي تتكوّن منها اللغة ...تتّجه إلى وصف الأصوات، والصيغ ، والكلمات ، والظواهر الموقعية[٢] .

وهم في هذا يصنّفون جميع الكتب النحويّة التعليمية معيارية ؛ إذ « النحو الوصفي لا يشغل نفسه بأمور التربية ، ولا بأن يسنَّ القواعد لمعلم اللغة ، لأنَّه حيث توجد السليقة لا توجد الأخطاء ، ولا ما يوصف من الاستعمال بالجودة والرداءة ، وإنّما توجد فقط نواحٍ مختلفة من اللغة تتطلب الوصف »[٣] .

وهم في هذا ينتقدون حركة التأليف اللغوي عند العرب من حيث الجمع مادةً وطريقةً، وزمانًا ، ويعلّقون هذه الدراسة بشيءٍ لا يكاد يقع . خاصّة في بيئتنا ،

(١) هادي حمودي / أحمد بن فارس/ عالم الكتب/ بيروت/ عام ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ط الأولى/ ص ٢٤٧
(٢) انظر تمام حسان / اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦
(٣) المصدر السابق ص ٢٤ ، وانظر ص ٢٥-٢٦

ويأتون بأشياء مرفوضة في جميع اللغات ؛ إذ التفاضل بين كلماتها وأساليبها متفاوت الرتبة ، والتأثير ، والقبول.

* * *

إن أبرز سمة لعلم اللغة الحديث اختلاق المشاكل وتهويلها ، وكأنّ العقاد يعنيهم حين قال : « وعلينا أن نسقط من حسابنا تهويل المهوِّلين باختلاف نطق الحروف على حسب اللهجات الفصحى والعامية ، فإنّ الملايين من أبناء العربية يكتبون الجيم بشكلها الأبجدي المعروف ، وينطقها ابن القاهرة وابن الصعيد وابن دمشق كل منهم على حسب منطقه الذي نشأ عليه ... إلخ كلامه »[١] .

وقد صوّر هذا الأمر د. محمد محمد حسين قال : « أوّل ما يأخذ نظر القارئ لكل ما كتبه دعاة التغريب في فقه اللغة اختلاق المشاكل والمبالغة في التهويل من شأنها ، فالمسائل العلمية كلها تتحول في كتبهم إلى مشكلات »[٢] ومن هذه المشكلات التساهل في ضبط مخارج الحروف العربية وتحريف أصواتها ، واختلاف صور الكلمات الصوتية من نبر وتنغيم وتزمين وتلوين بين مختلف الأشخاص والشعوب »[٣] .

لو جاءنا شخص وقال: إنني سأبني تصوّري عن الإسلام من واقع النصوص

---

(١) عباس محمود عقاد / أشتات ومجتمعات في اللغة والأدب/ ط الثانية/ دار المعارف بمصر بدون تاريخ ص ٤١ وانظر ص ٥٣

(٢) محمد محمد حسين/ فقه اللغة بين الأصالة والتغريب ص ١٩٨

(٣) المصدر السابق ص ١٩٩

الإسلامية في القرآن والحديث والفقه والأصول والتفسير ، وجميع الكتب الإسلامية والعلوم ، حتى تفسيرات الصوفية والباطنية للإسلام ، وقال : إنه سينظر للحياة الإسلامية وسلوك المسلمين في مناحي هذه الحياة سياسة واقتصادًا واجتماعًا ، وعبادةً ، لأقول : هذا هو الإسلام . أنقبل منه هذا ؟ .

من المعلوم أن كثيرًا من تفسيرات المبتدعة للإسلام ، وكثيرًا من سلوك المنتسبين إلى الإسلام ليس بينها وبين الإسلام صلة ، بل الأدلة القطعية ، والحقائق الثابتة تردُّها ، وتقول: إن الإسلام بريء منها. لو أتى آتٍ وقال : إنّ الإسلام تمثله الفئة المعينة التي تفسِّره تفسيرًا باطنيًّا ، أنقبل منه ؟! أو جاء آخر فقال : إنّ الإسلام ما عليه الناحية الفلانية وسكّانها ، وأعمالهم القائمة على منافاة الإسلام وهي أعمالٌ قائمة على ما يسمُّونه الترفيه ، والحريّة المطلقة ، والمساواة المطلقة على الطريقة الغربيّة ، أنقبل منه ؟! وكذلك لو جاءنا شخص وقال : إنه سيتناول تفسير الإسلام بالطريقة الغربية أنقبل منه ذلك ؟!

إنّ الإسلام له أصوله الثابتة ، وحقائقه القطعية ، وقد استقرت تلك الأصول ، وثبتت تلك الحقائق ، وكُلُّ ما أحدث بعدها على خلافها فهو ردٌّ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » لأنه دينٌ قد كمل في أصوله وفروعه (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) [1] .

وترك للناس أن يطبقوها بالوسائل الجائزة الممكنة .

والحال في اللغة قريبٌ من هذا ، إذ اللغة قد اكتملت بصورتها النموذجية ؛ لأنه كما للدين وتطبيقاته صورة نموذجية ، ومثال قائم ، كذلك للغة صورة نموذجية

(١) المائدة آية (٥)

، ومثال قائم. للدين مثاله من الحياة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن وليهم من التابعين ، والعصور المفضلة ، كانت أقرب القرون إلى حقيقة الشرع ، وأبعدها عن هوىً ، والبدعة فيها مرفوضة ، والسنة قائمة ، وكذلك اللغة كانت في الجاهلية قبيل الإسلام ، وفي عصر الإسلام ، وما تلاه من عصور لغة نموذجيّة ، هي المثال أو كالمثال ، جعلت محاكاتها الغاية ، وتحقيق سماتها مقصدًا ، والخروج عنها لحن ، يذم مقترفه ، ويهجّن منطقه ، وهذا أمر تتفق فيه لغة هذا الدين معه ، وتختلف به عن سائر اللغات والأديان ، كُلُّ الأديان اختلط حقُّها بباطلها ، وفقدت الصورة المثلى لتطبيقها ، واشتبهت الأدلّة بغيرها ، حتَّى رانت على حقائقها ظلمات الجهل والريبة، وأصبحت أرجوحة يتلعب بها أحبارها ورهبانها ، بوحيٍ من سلاطينهم أو شهواتهم . وأمّا لغاتهم فهي أقلّ ثباتًا من دينهم ، وأسرع إلى التقلب من عقائدهم وعباداتهم ، فهم في الدين يخطبون ودّ العامة وأصحاب الشهوات ، وفي اللغات يستسلمون لمتغيرات الألسنة والأقلام ، أمّا هذا الدين فهو ثابت لا يقبل التغيير ، ولغته ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، قابلة للنّماء والعطاء بمقدار ما يبذله أهلها من جهد .

« إنّ بعض علماء اللغة الوصفيّين – في الواقع – ما يزالون في حاجة إلى أن نذكرهم أنّ اللغاتِ كانت تتكلَّم وتتعلَّم وتعلّم وتدرسُ وتناقش مدة طويلة قبل وجود بوسي ، وبلومفيلد وأنّ هناك مناهج أخرى للدرس اللغويّ غير مناهجهم يمكن أن يتوصّل إليها ، وربّما كانت في بعض الأحيان أرجح من مناهجهم ، إنّ العلم يعد علمًا فقط حينما يظلُّ محتفظًا بعقليّته المتفتّحة، وحينما يسمح بالمناقشة الحرّة

، وإلاّ فإنّه ينتكس إلى مجرّد قضايا أو أحكام تحكّميّة لا تستند إلى دليلٍ أو برهان »[١] .

وبعد فلعلِّي لا أكون مبالغًا حين أقول : إن أقرب ما يصدق على المنقطعين إلى علم اللغة ، المتبتلين في محرابه قول أبي الطيّب اللُّغويِّ في علماء العربية من أهل بغداد : «وأمّا بغداد فمدينة ملك ، وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم فمنقول إليها ، ومجلوبٌ للخلفاء وأتباعهم ، ورعيَّتهم ، ونيَّتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة ؛ لأنّ العلم جدٌّ، وهم قومٌ ، الهزل أغلب عليهم ، واللَّعبُ أمْلَكُ لهم ، فإن تعاطى بعضهم شيئًا أو شدا منه ، فإنّما همُّهُ المساماة به ، وبغيته المباهاة فيه ، فترى أحدهم يتكلم بغير علم ، ويهمز ليعدَّ في العلماء ، ويذكر رغبته في أطراف العلم ودواوينه ، وفروعه وغرائبه ، ويسامح نفسه في أصوله وسهله وذلوله ، فهو يبني على غير أسٍّ ، ويحبُّ الرياسة بأهْون مسّ ، فلا جرم أنهم يوهمون ولا يفهمون ، ويسألون فيستبهمون !

قال أبو حاتم : أهل بغداد حَشْوُ عسْكر الخليفة ، ولم يكن بها من يُوثَقُ به في كلام العرب ، ولا من ترتضى روايته ، فإن ادّعى أحدٌ منهم شيئًا رأيته مخلِّطًا صاحب تطويل ، وكثرة كلام ومكابرة ، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو ، وبين الرؤاسيّ والكسائيّ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة ، ويتحفّظ أحدهم مسائل من النحو بلا عِللٍ ولا تفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف إليه ، وإنّما همّ أحدهم إذا سُبِقَ إلى العلم أن يسيِّر اسمًا يخترعه لينسبَ إليه ، فيسمِّى الجرَّ خفضًا ، والظرف صفة ، ويسمّون حروف الجرّ ، حروف الصّفات ، والعطف ، النّسق ، و« مفاعيلن » في العروض « فعولان »، ونحو هذا من التخليط .

(١) ماريوباي / أسس علم اللغة ص ٢٦١

قال أبو الطيّب اللغوي : « والأمر في زماننا هذا – أصلحك الله – على أضعاف ما عرف أبو حاتم »[١] .

قيل هذا الكلام في استبدال مصطلح بمصطلح ، وتغيير اسم باسم ، مع الحفاظ على أصل الفكرة وحاقّها ، فماذا يقال : إذا كان الأمر يتعلق باستبدال علم بعلم ، وإحلال فكر مكان فكر ، وتبديل منهج بمنهج ، وأسلوب بأسلوب ، وغاية بغير غاية ، وبالشيء الواضح المحدّد شيئًا مبهمًا لا تتضح معالمه ورسومه ، ولا منائره وأعلامه . اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا .

وبعد ، فإنني أشعر أن قائلًا سيقول : كلامه الليلة نابع من عصبيةٍ للعربية ، لأنّ المحاضر تراثيٌّ قحٌّ ، لا يسمح للرَّأي الآخر أن يتسرَّب إليه .. وأنا سعيد بمثل هذا القول ، وأدعو الله أن يجعلني خيرًا ممّا يظنّون ، وفوق ما يقولون ، وأتذكر في هذا المقام قول جميلٍ أو مجنون ليلى :

وماذا عسى الواشون أن يتحدَّثوا ... سوى أن يقولوا : إنني لك عاشِقُ
نعم ، صدق الواشون أنت حبيبةٌ ... إليّ وإن لم تَصْفُ منك الخلائق

أمّا إنها قد صفت وحَلَت ، وبرئت من الشر وخَلَتْ . فالعِلاقة متصلة ، والبوح بها غير محظور بين جمع من محبّي العربي :

فلو كُنْتُ خَوَّارًا لقد باح مُضْمري ... ولكنّني صُلْبُ القناةِ عَريقُ
كأن لم نحارِبْ يا بُثَيْنُ ، لوانَّهُ ... تكشَّفُ غُمّاها ، وأنت صَديقُ

(١) أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي / مراتب النحويين/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار نهضة مصر / القاهر بدون تاريخ ص ١٦٠-١٦١

وأستغفر الله من فتنة القول ، وخطل الرأي ، وطيش الفكر ، وسوء العمل ، وأسأله القبول والرضا ، إنّه الجواد ربّنا ، وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.